شرقية في انكلترا

٢

العائلة الانكليزية

يفهم الانكليز من « العائلة » غير ما نفهم نحن تماماً ، اذ هي عندهم عبارة عن كتلة متضامنة متماسكة ، دون ان يضحي في سبيل هذا التضامن بشيء ما : هي مترابطة لكنها ليست متلاصقة. يتزوج الرجل والمرأة فيتحدان بعروة لا تزال لها قداسة وتبجيل رغماً عن التطورات الاجتماعية بعد الحرب التي سهلت كثيراً في مبادىء الطلاق والهجران

يحبان البيت ويحسبانه تلك الزاوية الصغيرة التي هي مقرّ سعادتهما وقبلة أملهما وقطعة تمثل نفسيهما متحدين ، فيتعاونان على العمل في سبيل جعله هنيئاً . ولكن هذا البيت في الوقت ذاته لا يستعبدهما ولا تحول تلك العروة المقدسة دون سلوك كلّ منهما طريقه الخاص . فقد يمضي الرجل بشغله طول النهار ، وقد يذهب الى محبه في الاندية الخاصة بالرجال يجلس اليهم جلسات لا تلذ للرجل إلا اذا خلا الى بني جنسه . اما هي فقد لا يمكنها من اشغال البيت ما يستغرق ساعاتها الطوال ، فتذهب الى عملها اذا كانت ذات عمل وتشترك في رفع مستوى البيت اقتصادياً ، وقد تزور وتزار وتذهب هي ايضاً الى انديتها الخاصة . ولكنهما يجمعان دائماً على ثقة متبادلة وسلوك جليّ وعلى عدم اهمال احدهما لشأن الآخر او الاستمتاع بشيء من لذات الحياة دونه ، وكل امرأة تفهم اعمال زوجها وتتفانى في مساعدته وقد تفلو فيها غلوّاً يكون سبباً لنجاحه العظيم

ونجد مسحة الهناء البيتي في العائلة لانها تقوم على روح التفاهم والصراحة بين افرادها . اما مسألة السيادة في البيت وهل هي للاب او للام ، فاني اؤكد انها عندهم كما هي عندنا وكما هي عند كل البشر ، وهي مشكلة وهمية محاولة بطبيعتها لا تستدعي سابق اتفاق ، اذ ان الاقدر منهما على ادارة العائلة هو الذي يسيّر امورها ويسود عليها وقد لا يشعر الفريق الآخر بهذه السيادة ، وقد لا يضرّبها ، لكنهُ يخضع مختاراً الاّ اذا انقلبت السيادة استبداداً . وتظل جامعة العائلة عاطفية تقوم على الرأفة والحنان والعناية الصحيحة ما دامت مؤلفة من والدين واطفال . واما اذا شبّ هؤلاء وتزودوا بما يؤهلهم لمنازلة الحياة فان منهم من يضرب في مشارق الارض ومغاربها سعياً وراء

الرزق . وسهم من يبقى ضمن العائلة الى أجل ، ولكنَّ جميعهم عندئذٍ تقوم على المصلحة المشتركة سواء في ذلك البنات والفتيان، حتى ان اهل العائلات واشدّها محافظة صارت تتسامح في خروج الفتيات الى العمل كالفتيان ، واصبح من الامور العادية ان تسمع ان فتاة ذات لقب تشتغل سكرتيرة او مديرة محل او في مخازن الازياء او على مسرح التمثيل والغناء الى آخر ما هنالك من متنوع الاشغال

اما اذا تزوج الاولاد فان الوالدين لا يكون لهما حينذاك من امر الولد شيء ولو كان وحيداً وكان احد ابويه ارمل ؛ فان العائلة الجديدة تتألف مستقلة بعيدة عن المؤثرات الخارجية ، والابوان يرجعان الى حياة هادئة سارّة ويقضيان بقية حياتهما في استقلال تفيد بحتاطان له من اول الشباب . لان الاستقلال الشخصي هو غاية الانكليزي القصوى

العناية بالاطفال

يذكرني هذا الاسبوع كثيراً باطفال انكلترة ، فاليوم يومهم هناك ، اذ ان عيد الميلاد يكسو البلاد حلة من الحبور ويعمرها بأمواج من المسرات. ومن لم يرَ استعداد الانكليز لهذا العيد لا يمكنهُ تصوره ، فمنذ تشعر ان الفضاء تغير والهواء تبدل ونظرات الجموع تحوّلت لحاظاً سعيدة . فابتسامة البسطة على كل ثغر ، ولمحة الحياة في كل وجه ، والتأهب للفرح في كل حركة ، والاولاد هم بهجة العيد وحبوره ، تقام لهم الحفلات والزينات وترسل الهدايا ، وتحوّل المخازن الكبرى اهم اقسامها الى معارض لهو تقام لاجلهم ، وتعدّ اقساماً ثانية بمختلف الالعاب ، وتوقف اعظم المراسح على تمثيل روايات خاصة بهم يقوم بادوارها اشهر الممثلين . ولعل نصيب الاطفال الفقراء من العيد اعظم من نصيب الاغنياء ، فكل عائلة تحسب لهم حساباً ، وكل قصر يقيم لهم حفلة ، واهم السيدات يشتغلن لاجلهم بكل جد وعلى رأسهن الملكة التي قد تذهب يوميًّا الى المركز العام لتسلم الهدايا وفتحها وتوزيعها على بقية الفروع الكثيرة . وقد تراكم عليها الشغل مرّة فاضطرت الى تناول غذاء وقتي في مركز الجمعية لمتابعة عملها

وهنالك جمعية عظيمة الانتشار لحماية الاطفال من كل سوء حتى من قساوة الوالدين . وقد ضرب والد طفلة مرة ضرباً عدّوه شديداً فحكم عليه بالسجن والاشغال الشاقة ستة أشهر

الطفل لهُ الحظ الاوفى من العناية في البيت من حين ولادته الى أن يشب فيطلق وشأنه . يؤخذ في عربته الصغيرة يومياً الى الهواء الطلق مهما كانت حالة الطقس . ولهُ في كل ناحية جنات فسيحة يسرح فيها ويمرح بمراقبة امه او مربيته التي لا تثبت وجودها الا اذا اضطرت لاثباته . ويتمتع تا في الجنائن من معدات اللعب المجانية ويجدهنالك كثيراً من الرفاق يشاركونهُ في العابه ويتعوّد معهم معاشرة الناس والاطمئنان اليهم . وللطفل الكتب التي لا تحصى ، ولهُ الجرائد والمجلات الخاصة ، ولهُ صفحات مُصورة في معظم جرائد الصباح والمساء ، ولهُ قسم يومي في برنامج الاذاعة اللاسلكية اذ تلقى على الاطفال قطع موسيقية جميلة وانا شيد رقصص مفيدة ونوادر فكاهية تراهم يطربون لها اي طرب

وقد احزنني أخ لي في العاشرة من عمره اذ جاء يسألني شيئاً يريد أن يقرأهُ لتسلية في عطلة الصيف فوقفت واجمة امام عقبة لم اتمكن من اجتيازها لان ما بين يديّ وما اعرفهُ في العربية كلهُ لا يصلح لولد في سنه ليفيده ويسليه . فاين هذا من تلك الكتب التي ليس لك الا ان تختار منها ما يروقك ؟ فالكتب المصورة تلقى الى الطفل منذ السنة الاولى من حياته ، ثم تتدرج معهُ في سنيه ، ومنها ما يخصص للبنات ومنها للصبيان ، ويظل يتمتع بها الى ان يتاح لهُ قراءة ما يشاء

وتعجبك من الطفل نظافة صحيحة ، على اني اظن ان الانكليز من اكثر الامم نظافة فالاستحمام اليومي عام بين كل الطبقات لا يختص بطبقة المترفين كما هي الحال في الامم الاخرى . اما التربية فاهم اسسها الاستقلال الشخصي واحترام السير ، يدربون الطفل على ذلك تدريجاً بديعاً معتدلاً ، فيبدأونهُ في مشيه ثم في العابه ثم في شراء لوازمه ثم في انتقاء دروسه ومدرسته ثم يترك وشأنهُ . ويستعدون للعناية باجسامهم وارواحهم استعداداً تامًّا ، فالمحاضرات والنصائح قد تلقى مجاناً للامهات ، والجمعيات تعقد لمعاونتهن ، هذا عدا الكتب والمقالات التي تصدر كل يوم ولكل من افراد العائلة المالكة او ذوي المقامات العليا مؤسسة من مؤسسات الاطفال تجعلها في حمايته

اما محبتهم للطفل فهي عميقة غريبة تدل على شعور رقيق . فهم يلاطفونهُ على الطريق وفي القطارات وفي المخازن والمتنزهات وفي كل مكان . واذكر اننا كنا مرة في محل قرب « بيكاديلي » — احدى ساحات لندن الكبرى — ومن يقدر ان يتصوّر كيف

يقدر الناس يوم الحشر يمكنهُ ان يتصوّر الازدحام في « بكاديلي » وقد اوقف البوليس حركة السير ليخلي الطريق منهة للسارين ، ولا يزال تعجبي على شدّته حينما اذكر انهُ مع كل ذلك تمكن من ملاطفة اختي الصغيرة بابتسامة حنان وكلمة لطيفة ، وكثيراً ما كان الناس يوقفونا ويستأذنون بمخاطبتها وملاطفتها . ومن اكثر الفرص التي يكون بها الطفل سبباً لتعارف عائلي قد يولد صداقة متينة

الفتاة الانكليزية

اول ما يستلفت نظرك منها قامة رشيقة متناسبة ، وزيّ حديث يلائم الزمان والمكان ، ولكنهُ على كل حال تقلص الى حدود الركبة وربما الى فوقها وظهر من تحته ساقان ممشوقتان تكللان حيال قامتها . وحينما لا يستلفت وجهها نظرك بجماله الفائق يستلفتهُ بنضارة حية . تلبس دائماً احدث القبعات ويستحيل ان لا تتناسب قبعتها مع لون الرداء او لون « التخريج » وتجدها دائماً تتدفق حياة كأنها على استعداد لامر تفعلهُ

هذا ما تراهُ من مظهرها الخارجي . اما في ما عدا ذلك فقد عرفتها تأبط حقيبة عملها مباحاً نشيطة سريعة ، وعرفتها في مكان العمل خفيفة زاهية كفراشة الربيع ، وعرفتها على مقاعد الدرس والتدريس مجدّة هادئة ، وفي الادارات الكبرى تدير دفة العمل بمهارة واتقان ، وفي مسارح التمثيل تمشي بالفن الى درجات الكمال ، وفي مجلس النواب محترمة الصوت رفيعة المقام ، وعرفتها سيدة بيت كاملة تهيئ بنفسها راحة الزوج والاولاد والضيوف ، ورأيتها في ميادين اللعب تجول جولة الابطال ، وعلى صهوات الجياد تتفوّق — بشهادة العارفين — على الفرسان من الرجال ، وفي النهر تسيّر تارة صغيراً تجذف بهمة ونشاط ، وفي البرّ تجلس الى سيارة وقد يكون معها صحب من الرجال فتقودها دونهم بلباقة تقلُّ فيها المخاطرات ، ورأيتها تحلق في الفضاء هازئة بالمجازفات ، ورأيتها — في شخص « مسز كورت تريت » تضرب في مجاهل الارض وتتعرّض للصعوبات لتساعد في اكتشاف طريق جديد للسيارات من رأس الرجاء الى القاهرة . واذكر تلك اللذة التي حدثتنا بها عما لاقتهُ من ضروب العذاب وتلك الصور التي ارتنا بها كيف تقدر المرأة على مصادمة الاخطار . ورأيتها على الشواطىء البحرية مرتمية على الرمال تعرّض جسمها لحرارة الشمس بعد سباحة طويلة ، مفاخرة بآثار لذعاتها في جسمها ، ورأيتها في السهرات وقد ارتدت اجمل الاثواب تتمايل في حلقات الراقصين

... ورأيتها وطنية سباقة الى الخدمة العامة تهتم بالمسائل السياسية داخلية وخارجية. واعرف صديقتين لنا هما « مسز بزرد هرست ومسز فوكرسون » رئيسة وسكرتيرة « العصبة السياسية الوطنية » ولعصبتها اعضاء عديدون ينتمون الى ارقى الطبقات . ولها اهتمام عجيب بالمسائل السياسية العربية على اطلاقها وتشتغلان باخلاص تشكران عليه ، وقد جندت عصبتها وحدها ايام الحرب ثلاثين الف فتاة وضعتهن في تصرف الحكومة . ورأيتها تسير بالنهضات النسائية الى هدف اعلى حتى ترعت الحركة النسائية في العالم

ورأيتها في كل مركز وفي كل عمل اذ يندر ان تجد في انكلترة امرأة دون مركز لشغلها او بشغلها ، ولم ارها في كل ذلك الا جذابة محبوبة ، حرة محترمة ، رغم ما يتهمها به الرجعيون من فقدانها جاذبية الانوثة لانها دخلت ميدان العمل ، الامر الذي يزعمون به في كل الامم . على اني اذكر ردًّا بديعاً لاحد اللوردات وهو رجل عجوز قال : « ان ابنة اليوم هي اصبح مثال لعصرها ، خلقت لمجاراته لا لمجاراة ميولنا القديمة ، وكثيرات من الفتيات تتصفن الجاذبية طبيعة دون ان يشتغلن ، وبها كانت فتاة الامس جذابة في نظرنا فانها لا تجاري فتاة اليوم التي نرى من افتتان شبان العصر بها ما يكفي للدلالة على ان نقصان جاذبية الانوثة وهم من الاوهام »

اما تعليمها فهو متناسب مع تعليم الرجل اذ انهُ ، على العموم ، ثانوي الا اذا أريد التخصص ، ولكنك تجد الطبقات العليا ترسل بناتها ، بعد اكمال دروسهن ، الى عواصم اوربا وعلى الاخص الى « باريس » يدرسن لغة البلاد او يتخرجن في احد الفنون الجميلة

وقد نالت الانكليزية من الحقوق العامة ما يمكنها من ان ترفع رأسها بهِ تيهاً امام الامم ، حتى نالت مؤخراً حق الانتخاب على اطلاقهِ بعد سن الحادية والعشرين ، ويبلغ عدد اللواتي لهن حق التصويت حسب الاحصاء الاخير ٩٢٢ و٨٣٢ و١٤ امرأة في مقابل ٧٩٩ و٦٩٧ و١٢ رجلاً ولا يخشى على الرجال منهن لانهن ، على الغالب ، مسالمات يسعين الى حقوقهن بقوة — والحق لا ينال بغير القوة طبعاً — لكنها قوة السعي المتواصل والكفاءة الثابتة . وقد اجتمعت مرة « بمسز فيلسون » احدى النائبات في المجلس البريطاني وسألتها عن غنمها وسبابها فقالت في حديث : « ليس من مبدأي اظهار التظلم كثيراً من الرجل . ولا مجابهتهُ في طلب الحقوق . بل اني

اسالهُ وافتح لهُ قلبي واقدّم دائماً اذناً صاغية لسماع شكواهُ ، ولو كانت من النساء . لهذا تجدين زملائي الثواب يطمئنوني على امرهم وقد يشكو اليَّ بعضهم بعضاً . ولهذا لا يخطئهم ظنٌّ ان تسمح بهِ كبرياء الرجل لامرأة » . واحسب ان هذا يعبر عن رأي الاغلبية العظمى من الانكليزيات

كنت كلما رأيت الفتاة الانكليزية تتمتع بنعم الحياة وافرة ، اتمثل الجهود التي بذلتها في اجيال متطاولة لبلوغ هذه المرتبة الرفيعة ، ولكن رؤيتها كانت دائماً تثير في نفسي عاطفتين : كنت اعجب بها واغبطها مأخوذة اللبّ بهذه القدوة الحسنة ، ثم كنت اتألم واشكو الاجحاف من دنيا تحسب عليَّ هذه الايام التي احياها من العمر ، حياة !

النفس الكريمة والتهذيب الراقي

كنت اول ما ذهبت الى انكلترة التقط اللغة من افواه المتكلمين واذكر ان اول كلة حفظتها منهم اذ كنت اسمعها تتردد على كل لسان هي كلة (Lovely) يقولونها كلما استجملوا امراً ما ، وكأنهم يرون في كل شيء جمالاً خاصًّا فيطلقون الصفة بهذا السخاء الذي يسترعي الانتباه . ثم بقيت ستة أشهر قبلما حفظت كلة (Nasty) التي يقولونها للاستقباح لقلة ورودها على ألسنتهم . انها حادثة صغيرة ولكنها دليل كاف على ما عند القوم من تهذيب راق وكرم نفس

على انني اذا وصفت الانكليز بكرم النفس فاني دون شك لا أعني انهم خلوٌّ من النقائص او انهم ملائكة ابرار ، واذا تكلمت عن النظام والترتيب والامان والتهذيب الراقي فاني لا أنسى كيف يهجم السارقون بقحة عجيبة على واجهات المخازن في رائعة النهار وعلى مرآى من آلاف الانظار وعلى مقربة من البوليس فيحطمون الزجاج ويسرقون الغالي والثمين ويختفون بسرعة « الابالسة » قبل ان يعود للناس رشدهم وقبل ان يتمكن احد من مسهم بضرر ، ولا انسى كيف يُعتدى على النظم الاجتماعية بضاعة لا يأتي بمثلها احط المخلوقات آداباً ... ولا تمرّ دون ألم عميق في نفسي ذكرى تكث سياسيهم عهود العرب ، بعد ان وثق هؤلاء بهم واستسلموا باخلاص لوعودهم الزائفة . ولكنهم كشعب خبرت ما فيه من النقائص والحسنات ، لا أقدر الا ان اصفهم بكرم النفس ، ولم أر من افرادهم الا عطفاً على ما يسمونهُ القضية العربية واستنكاراً لعمل السياسيين ، ولعل هذا الفرد ذاته الذي تمثلتُ نفسه عطفاً عليك ينقلب سياسيًّا متلوناً

اذا تسلم زمام الحكم . على انهُ ليس من شأني ان اتتبعهُ الى هناك فانا اكتفي بهذه النفس الكريمة التي يظهرها عند كل ساعة وبهذا الاستعداد الذي يتقدمهُ لخدمتك حتى لتنسى غربتك ولو كنت تجهل اللغة . وبهذا الشوق الذي يبديه لسماع آلامك والرغبة في اكتناهها

النفس الكريمة تدفعهم الى كل عظيمة وتهوّن عليهم كل تضحية . أليست هي التي تدفعهم يتسابقون الى البذل في سبيل اغاثة البائسين ؟ وتحمل نبيلات سيداتهم على الخروج الى الطرقات يسألن الشقيق الاحمر يمنحها لمارة يوم عيد الهدنة فيقبلون على شرائها بسخاء حتى يزين بها كل صدر وكل مكان فلا يقع نظرك يومذاك الا على مروج من الشقيق الاحمر . ومن ريعها تدخل آلاف الجنيهات صندوق اغاثة منكوبي الحرب

اما التهذيب الراقي فانك تراهُ جليًّا في كل الامور ، ترى العاملة بالمخازن والدكاكين تسلمك مشتراك وتسوقك الى كلمة الشكر ، وتسمع التذاكر في المحطات يجمع المئات والالوف كل يوم ويتناول كل تذكرة مرفقة بكلمة شكر . والرجل منهم يقدم لك المساعدة دون ان يأبه لمكافأة بل يقوم بذلك بطيبة خاطر دالة على نفس كريمة وتهذيب راقٍ . وقد كنا مرَّة في نزهة طويلة في « بارك رشموند » وكان يسير على مقربة منا رجل في نحو الستين من عمره تدل هيأته وبدل ظاهر السيدة التي ترافقهُ ولباسها على انهما من الاسياد وكانت اختي الصغيرة تعبة فحملها اخي مدة حتى ارتاحت ولم يكد يضعها على الارض حتى أسرع الرجل وبحركة رشيقة سلَّم عصاه لامرأته وبلطف سام لن أنساه قط تقدَّم مستأذناً وقال : « لقد آن دوري الآن لحمل هذه الصغيرة التعبة »

وبنفس كريمة يحمون الحيوانات كما يحمون الاطفال حماية صحيحة لا اسمية فحسب ويرعونها بعطف وعناية صادقين ولهذا فانك لا تشهد هناك في معاملة الحيوان هذه القساوة التي كثيراً ما تدمي القلوب . وبأدب راقٍ وضع أحد سائقي « التاكسي » علبة سجاير في مكان ظاهر من سيارته يدخن منها الراكبون ولكنهُ اجاب عن سؤال استفهام بقولهِ انهُ قلما تنقص العلبة اكثر من سيجارتين او ثلاث في النهار

أليس النفس الكريمة والادب الراقي هما اللذان جعلا سائقاً آخر ، ايام الوافدة في السنة الماضية ، يصوّب المطهرات الى داخل سيارته بعد كل راكب ليأمن الراكب الجديد مما قد يحمل اليهِ من عدوى ؟ وبأدب راقٍ تراهم ينتقدون انتقاداً مرًّا لا ينجو من سهامهِ عظيم ولا كبير ويصوّرون صوراً هزلية لا يسلم منها حتى ولا ولي العهد ،

وبنفس كريمة وخلق رضي يتقبلون ذلك الانتقاد ويطربون لهذه الصور

وبأدب راقٍ خالٍ من الادعاء الفارغ ، وباحترام لا تشوبه مبالغة تعامل المرأة كيفما اتجهت . وانني اقول واكاد لا اصدق ذلك بانني امضيت في انكلترا نحو سنتين لم اسمع فيهما كلمة تخدش الاذهان ولم ارَ نظرة توجه الى امرأة بفضول اذا لم تشجّع هي على ذلك وقد بقيت اشهراً عديدة اذهب صباح كل يوم مقدار ساعة بالقطار لآخذ دروساً في الانكليزية ، والازدحام يكون على اشدّه في ذلك الوقت والقطارات ملأى بالفتيان والفتيات ، وكنت اقصد دائماً ملاحظة آدابهم فما كنت ارى رجلاً الا معهُ جريدتهُ يستغرق في قراءتها وكل فتاة تتلهى بجريدة مصوّرة او تفتح كتاباً او تخرج من حقيبتها شغلاً تتابع حياكتهُ بانصارتين ، حتى اضطررت ان افعل مثلهم واحضر كل يوم شيئاً اقرأهُ في القطار

والتهذيب الراقي هو الذي يجعل بائع اللبن الحليب يمرّ على الابواب ويترك مطلوب كل بيت من زجاجات الحليب مملوءة دون ان يطرق الباب ودون ان يخاف عليها السرقة او التحطيم . بل اعظم من ذلك ان تدخل بيتاً جامعاً لسكان مختلفين تجد على طاولة امام باب المدخل قائمة كل منهم لحساب النسيل وقد وضع كلٌّ الدراهم المطلوبة منهُ فوق قائمته دون ان يخطر في باله التحفظ من سرقتها او من سوء امانة تسلمها . والتهذيب الراقي الذي يؤمن على حاجتك اذا اضعتها اليوم ان تسلمها من ادارة البوليس غداً . بل انك حيثما توجّهت تلاقي بنفس كريمة وتعامل بتهذيب راقٍ

***

انت اذاً ترى هذا وذاك كل يوم وكل ساعة فلا غروَ اذا نزل المكان من نفسك منزل الهيبة والاعجاب ، ولا غرو اذا احسست ان شخصك محترم وان الناس يعاملون بعضهم بعضاً بتهذيب ، فتشعر بانك جزء من هذه العظمة الشاملة

الا ان المدنية مهما اختلفت التعاريف ومهما جُمع في شرح هذه التعاريف من مجلدات تلخّص بقول « برنارد شو » اعظم كاتب حيّ على الاطلاق حيث يقول ببساطة : « المدنية هي ان تحترمني وتحترم ما يخصّني ، واحترمك واحترم ما يخصك »

وتتفاوت مدنيات الامم انحطاطاً ورقيّاً ، بتفاوت انطباق هذا التعريف عليها قرباً وبعداً ، واذا سلمنا بهذا فاننا ولا بدّ مسلمون بان الانكليز من افضل امم الارض مدنيـة

عنبره سلام

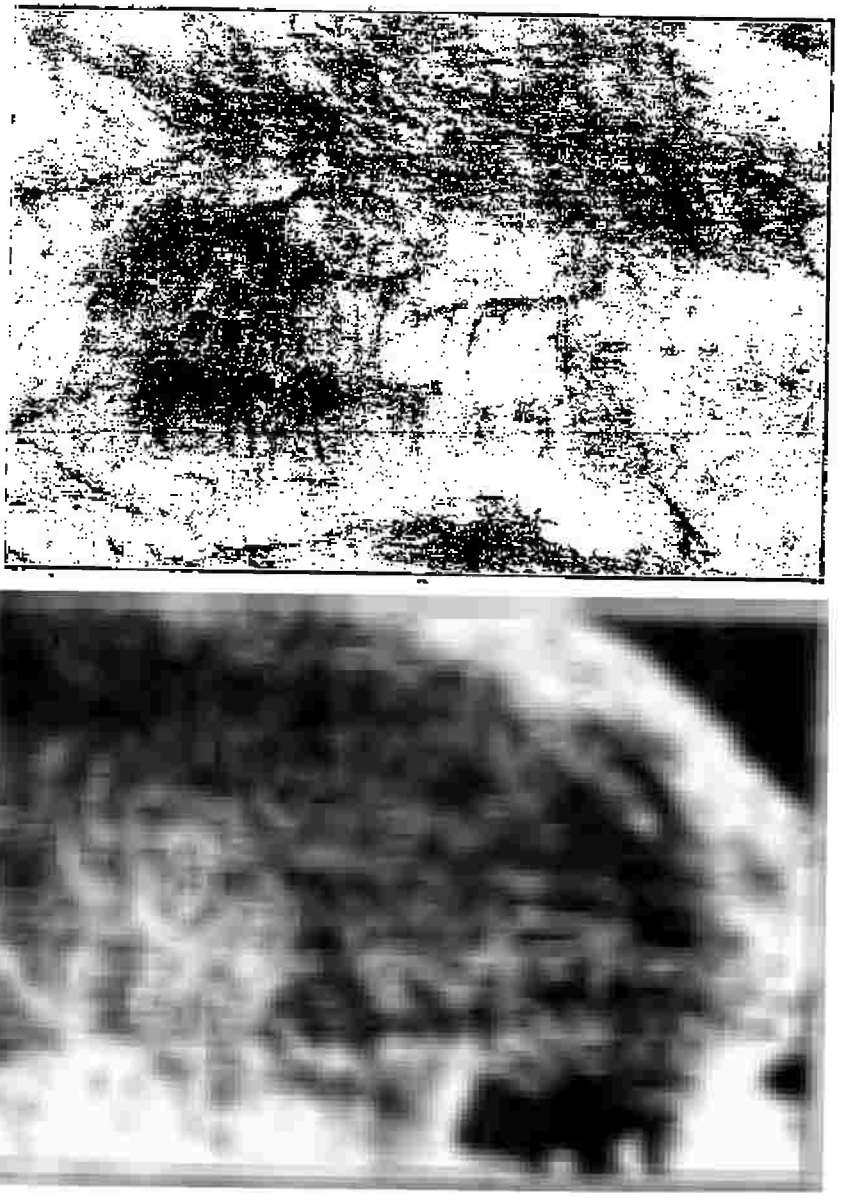

صور الكلاب السوتية في الآثار المصرية

مقتطف مايو ١٩٢٨

راجع الصفحة ٥٤٩